بين الكاس والطاس

بقلم الدكتور احمد زكى
أستاذ الكيمياء بكلية العلوم

الخمر قديمة كالانسان ، خلقها من خلق الهم ، وأبدعها من أبدع الحس ، وأرادها أن تبقى على الدهور والاحقاب من أراد ألا يكون الكون خيراً كله ولا شراً كله

الخمر لا وطن لها لأن الأرض وطنها ، عرفها المصرى والفينيق ، والاغريق والرومانى ، ويعرفها التركى والالمانى ، والفرنسى والامريكى ، والخمر لا دين لها فقد اعتنقت جميع الاديان ؛ عصرها كهان المجوس ، وباركها أحبار اليهود ، واتخذها يسوع رمزاً لدمه فمنعها من بعده القسيسون والرهبان ، وحرمها الاسلام فاستحلها الخلفاء لما صارت الخلافة ملكاً عضوضاً . لم يحل لهم أنس الا بها ولم يطب نغم الا عليها ولا لذ غزل الا فى دبيبها ونشوتها

والخمر لا مدنية لها فقد عرفتها كل المدنيات ، عرفتها إبان اشراقها ونشأتها وازدادت بها علاوهى فى كبد سمائها وأوج صولتها ، ثم غربت على الاكثر فيها كما تغرب الشمس فى لجة البحر المحيط . كذلك شربها المدنى فى كؤوس من ذهب بين عمد المرمر وعلى رنين القيثار ، وشربها الوحشى حيث لا كأس غير صحاف القرع ولا عمد غير غاب النيل ، ولا رنين غير زمر القصب وقرع الطبول

وجاءت المدنية الحاضرة بعلمها وعددها ، وبطبها وأحصائها وبتجاريبها فى الافراد وتجاريبها فى الجماهير ، وخرجت على أن لعنة الناس فى الخمر وخسرهم فى ذوب الرحيق . وتكونت فى كل أمة أمة تدعو الى السبيل الجديدة وتبشر بالرسالة الجديدة باسم العلم وباسم الاقتصاد فى قوى المال لزيادة الانتاج . وزادت الدعاية حتى أن أمة من أكبر الأمم عدداً وأكثرها عدة وأحدثها حضارة صوت ناخبوها بتحريم الخمر ، فصدر القانون بطلاق بنت الحان ، فأغلقت الخمائر واهدرت الدنان ، وحاطوا امريكا بسياج ثقيل من عسس يمنع الداء أن يدخل ، والداء بالجسم دقيق ، والجسم قد يحتل من جرثومة تغزوه ولكن أكثر علته من جرثومة للموت ولدت فيه . وما هى الا سنة فأخرى حتى سالت الخمر فى امريكا سيلان الماء فيها ، سدت عليها منافذ الماء ، ومهابط السماء ، فتفجرت كالزيت من منابع فى أرضها ، فى عقور ديارها ، فسبحا الناس اغترافاً ، وعبها رجال القانون معهم ؛ ومتى أبطل مداد الاوراق ماجرى به مداد الاعراق ؟ ولما أصبح القانون ، ذلك الشيخ الوقور المهاب ، يصفع فى السر أقل ويصفع فى الجهر أكثر جاء منتخبوهم منذ اسابيع فرحموا الشيخ فنقروه ، وهكذا عادت الخمر الشيخة تهادى الى عرشها ، فلما استقرت فيه نظرت للانسان فابتسمت وكان من ورائها الاجيال فابتسمن أيضاً

وبعد فما الخمر الا الكحول ، وهو ماء ولا ماء ، ماء فى مظهره ونار فى مخبره ، وقد أخذ أشكالا عدة ، وأسماء عدة فأسموه البيرة وأسموه النبيذ وأسموه الوسكى وكل هذه تحويه ان قليلا أو كثيرا وهى تفقد أسماءها بفقده ، ومن السخف ما يباع أحيانا بانه بيرة لا كحول فيها . والبيرة تنتج من تخمير الشعير وبها ما بين ٤ الى ١٠ فى المائة من الكحول ومقدار لا بأس به من أجسام صلبة ذائبة شبه السكر نتجت من تحلل النشاء الذى كان بالشعير . والبيرة المتادة لونها أصفر وطعمها مرير بسبب عشب يضاف اليها . والنبيذ ينتج من تخمير عصير العنب وبه ما بين ٦ الى ٨ فى المائة من الكحول ولونه أحمر ويتعاطاه الكثير من الفرنجة على الطعام كما يتعاطون الماء . وهناك نوع آخر من النبيذ ويسمى البرط وبه ما بين ١٥ الى ٢٠ فى المائة . وبالانبذة غير الكحول مواد سكرية وحوامض كحامض الطرطير تعطيها طعما ذاعقا . أما حسن طعمها وطيب ريحها اللذان يشيد بهما الشعراء فيرجعان على الاكثر الى اتحادات بين ما بالانبذة من حوامض وما بها من كحولات اذ (تتأستر) هذه بتلك فتنتج مايشبه الزيوت العطرية طعما وطيبا . ويزيد هذا (التأستر) على الزمن ، لذلك تختزن الخمر فلا ترى الشمس أحقاباطوالا قال ابو نواس يتمدحها

عتقت حتى لو اتصلت ... بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم مائلة ... ثم قصت قصة الأمم

وأما الشمبانيا فهى أخت النبيذ ، فأبوهما الكرم ، الا أن لونها اصفر ، ويرجع هذا الى أنهم يعصرون العنب سريعا فلا يمهلون الصبغة التى بقشرته أن تجرى فى العصير فتخمره ، وغير هذا فانهم يختزنون هذا العصير فى ابان تخمره فى زجاجات مقفلة سنتين وثلاثا فينحبس بها غاز الكربون الناشىء من التخمر تحت ضغط كبير ، لذا تفور الشمبانيا عند فتحها ، ولذا كان طعمها حريفا كالكازوزة بسبب هذا

الغاز ومقدار الكحول الذي بها كالذي بالنبيذ تقريبا

ويوجد عدا هذه من الاشربة الروحية أنواع لا حصر لها يختلف مقدار الكحول الذي بها اختلافا كبيرا ، ومن ذلك الوسكي ويحضر من تخمير الحبوب ثم تقطيرها ، والكونياك ويحضر بتقطير النبيذ ولذلك ترتفع نسبة الكحول بكليهما الى ٣٠ و ٦٠ في المائة . ومن الناس من يتخذ من كحول الحريق شرابا وهو يحتوى نحوا من ٩٠ في المائة من الكحول الخالص ويضيفون اليه أصباغا وزيوتا تجعله غير سائغ في الحلق ، ولكن حلوق الجهال من الفقراء يسوغ فيها كل كريه مرير

ويشرب المرء الخمر كائنة ما كانت فتمتص المعدة فالامعاء الكحول الذي بها امتصاصا سريعا فيذهب الى الدم ثم الى كل غشاء من أغشية الجسم فيحترق فيها الى غاز الكربون والماء احتراقا سريعا كذلك ، ولا تبقى منه بالجسم بقية ، فهو ليس بطعام بالمعنى المعروف ويخرج مقدار من الكحول قد يعلو الى ٨ في المائة في البول ومن الرئة في التنفس ، لذلك تشم رائحته في الفم . ومن الناس من يسترق الشراب ثم يحسب أن رائحته علقت بأشداقه فيغسل فاه حاسبا أنه قد تستر ويسير في الناس مطمئنا ورئتاه تدفعان بالسر في صوت جهير أبلغ من صوت الشفاه

ويتعاطى الناس الكحول للاثر الذي يكونه في المخ والأعصاب فأول ما يحدثه نشوة تثور فيها قوى المخ فيشتد الفكر ويحتد الخيال ولكنه فكر ثائر وخيال مضطرب ، وتزول عن الانسان أثناء ذلك الدقة في العمل ويقل ضبطه للامور فتكثر الاخطاء . قام الاستاذ (دلنج) أستاذ فن العقاقير بجامعة ليفربول بتجارب على زوجه فكان يسقيها مقادير مختلفة من الكحول ويملى عليها قطعا تكتبها على الآلة الكاتبة ويعد الاخطاء . وخرج من ذلك على علاقات طريفة بين مقادير الكحول وبين الاخطاء الناتجة دلت في مجموعها على أنه بالرغم من حدة الذهن وسرعة الالهام تقل قدرة الضبط في الانسان . قيل لشاعر فكه في ذلك فقال : اذن لا بأس علي من الخمر ، استوحي بها في الليل ، وأصحح اخطاء الوحي بالنهار . ولعل من أجل هذا أن من الشعراء والكتاب من كان لا يكتب الا اذا شرب ، وذلك مشهور عن الكاتب الانجليزي المعروف شارلس دكنز ، فقد كان لا يكاد يستفيق ، كان كالشمعة يضيء للناس وهو يحترق . وتعقب دائما فترة الايحاء هذه فترة خمود عميق يكل فيها الذهن وتتثلم الحواس

وفعل الخمر بالعواطف يناهض فعلها بالعقل ، فمن الناس من يخف به الفرح حتى ليذهب بوقاره ، ومنهم من تأتيه الكآبة فلا يكاد يحبس دمعه ، ومنهم من يرتاع فيهلع قلبه خوفا وفرقا ، ومنهم من يشجع فيغفل عن عواقب الأمور . ومن المثل الاخيرة الجراحون فان منهم من لا يستطيع حمل مشرط الا اذا نفح حواسه بتنبيه ابنة العنب . ولعل هذا ما حدا الى الجمع بين الخمر وبين كل لذة ولا سيما ما اتصل منها بعاطفة كالغناء والنساء . وهو الذي جمع كذلك بين الخمر وبين كل كآبة ، فكم من عزيز قوم تجهمت له الحياة في حب أو وشيجة أو مال فلم يطقها ، ولم يطق الموت ، فأمات نفسه حيا بالكاس تتلوها الكؤوس . وقد وجدوا ان للمستهلك من الشراب يزيد في الضائقات المالية التي تعترى الامم زيادة كبرى

ولعل اخطر ما في الشراب الافراط فيه حتى تتأصل عادته . يشرب الشارب فيكثر ، ويشرب والمعدة ملأى بالطعام ويشرب وهي خالية فيكون امتصاص الجسم له في الحال الاخيرة أشد وسريانه في الدم أسرع والى المخ اوحى ؛ فتقصر فترة الانتعاش الاولي الى العدم ، وتسرع الحواس فتغيم والبصر فينغبش فيرى الواحد اثنين ، وتصيب الاذن وعقف الرأس ويضيع الحكم على الامور ويرغو الفريسة ويزبد وتأخذه رغبة في الشجار والتحطيم ، ثم يسقط جسدا هامدا في غشية تتعطل فيها قوى المخ جميعاء الا الجزء اليسير الذي يكفي لاجراء الدم واخراج الانفاس ، ثم يصحو من نوم عميق محموم الجسد مصدع الرأس نافد القوى ، بالاذن رنين لا يسكت ، وبالقلب وجيب لا تسكن ، فلا يجد خلاصا من تلك الاعراض المؤلمة الا باعادة الجرعة وهي حقا تزيلها وتزيلها سريعا . قال الاعشى

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

ولكنه شفاء لا يدوم الا قليلا ، فيأخذ المسكين يتداوى من داء بداء حتى يصبح الشراب عادة أشد تأصلا في اعراقه من تأصل الروح فيها ، وتسوء في هذه الاثناء معدته لان الكحول مهيج شديد لاغشيتها ، ويعتريه فيه التهاب مزمن لا تنفع فيه حيلة الاطباء ، وتتحلل مادة كبده فتليف أو تدهن ؛ وتقل مقاومة الجسم عامة للامراض ، ولكن أخطر من هذا أن المخ يفسد فيصبح صاحبه في اضطراب دائم ورعشة لا تهدأ ، واذا هو أتاه النوم العاصي فبأحلام مروعة أروع منها احلام اليقظة اذ ترى عينه في الجهرة الجرذان تخرج من الحيطان والزبانية تختبيء له في كل الاركان ، وتسمع أذنه الاحياء المتحركة تسبه والأشياء الجوامد تلعنه ويتسابق جسمه وعقله الى الفناء في منحدر زلق لا تقف الرجل فيه !

ضحى الاسلام

هو الجزء التالى لفجر الاسلام

يبحث في الحياة العقلية للعصر العباسى الاول

تأليف

الاستاذ احمد امين

الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يظهر في اول يوم من فبراير سنة ١٩٣٣

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه عشرون قرشا